الملكات العقلية فى القرآن الكريم

الأستاذ سيد أبو المجد (*)

لقد أتى على الإنسانية حين من الدهر ، اصطرعت فيه الحضارات ، وتصادمت فيه الآراء ، وناقضت القيم والعقائد بعضها بعضا ، وعبدت الأصنام ، وساد البغى ، والتبس الحق بالباطل ، والخطأ بالصواب ، وبزغ الإسلام فكان مطلعه الفجر بما أرساه من نواميس ، وما قرره من قواعد وأصول ، ونظم وتعاليم ، دفع بها العقول إلى التدبر فى ملكوت السموات والأرض ، وكان الإسلام أول من قاد ثورة تحريرية، حرر بها العقول ، وطهر بها النفوس ، وقوم بها الأشياء ، وهتف بتكامل الكون وتكافله ، وسجل فى التاريخ الفكرى أروع صفحاته ، وأكد فى ثقة وتفاؤل قول الرسول صلوات الله عليه وعلى آله ، وهو يترك هذه الدنيا إلى الرفيق الأعلى مخاطبا أمته ، بل مخاطبا البشرية جميعا : "إنى تركت فيكم ما أن اعتصتم به فلن تضلوا أبدًا : كتاب الله وسنة نبيه" .

وإذا كان العلامة (ليكى) يقرر فى أحد مؤلفاته النفيسة : "أن تاريخ البشرية إنما هو تاريخ الصراع بين الآراء ، وليس هو تاريخ الصراع بين الشعوب فى سباق الأحداث" .

إذا كان يقرر هذا ، فإن الإسلام لم يعش بمعزل عن الحياة أو الأحداث ، بل عاشهما جملة وتفصيلا ؛ فالإسلام ليس مجرد عقيدة فحسب ، ولكنه عقيدة وشريعة ، وعلم وعمل، وعقل وخلق، وعبادات ومعاملات : ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ .

إن الديانات السابقة كانت تعالج جانبا واحدًا من جوانب الحياة ، وغالبا ما يكون جانبا وقتيا يزول بانقضاء وقت الرسالة ، أو بعدها بقليل .

(*) المستشار الفنى للمؤتمر الإسلامى ، والمحاضرة ألقاها بقاعة المحاضرات الأزهرية الكبرى فى الثانى من نوفمبر ١٩٥٩ .

فاليهودية كانت تهتم بالجوانب المادية فى حياة بنى إسرائيل ، والمسيحية تهتم بالجوانب الروحية المحضة ، وقلما تتعرض لغيرها من مشكلات الحياة .

ولكن الإسلام جاء على فترة من الرسل ، وانفرد رسوله صلوات الله عليه وعلى آله بأن رسالته عامة للناس كافة ، بل إنها شملت الإنس والجن . وامتدت من عصره إلى جميع العصور التالية له ، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ ، ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾.

وقد امتاز الإسلام عما سبقه من الديانات السماوية بأنه تناول جميع مشكلات الحياة المادية والروحية ، ووجه عنايته إلى الأجسام كما وجهها إلى الأرواح ، واهتم بالوصايا الخلقية ، كما اهتم بالعلاقات التشريعية ، وعنى بالأفراد كما عنى بالجماعات، ولم يترك جانبا من جوانب الحياة ، أو مشكلة من مشكلاتها الأساسية ، إلا عرض لها بالوصف والتحليل والتشريع ، ثم بالعلاج إن احتاجت إلى علاج .

والإسلام فى هذا كله لا يلقى أوامره إلقاء ، بل يعللها ويبسطها ، ويشرحها ويكشف عن دواعى التقبل فيها ، ويبرز ما فيها من حكم واعية ، وأهداف سامية ، تظهر حينا، وتدق حينا ، ولكنها صادرة لخير البشرية جميعًا .

والإسلام يرتكز على حقيقتين ثابتتين لا سبيل إلى نقضهما أو إلى تخلفهما :

الحقيقة الأولى : أنه لاعنت فيه ولا ارهاق طبقا لقوله عز من قائل : ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا ﴾ ، ﴿ لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَا آتَاهَا ﴾ ودعاء المؤمنين فيه ﴿ وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَا لاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ ﴾ .

والحقيقة الثانية : أنه لا ظلم فيه ولا استبداد طبقا لقوله تعالى : ﴿ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا ﴾ ، ﴿ يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ .

فتكاليف الإسلام مشتقة جميعها من الرحمة والنفع العام ، وهى تجرى فى حدود الاستطاعة والإمكان تأييدًا لقوله عز من قائل : ﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ ﴾ ، ﴿ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ ﴾ .

ولما كان الإسلام هو آخر كلمة أنزلها الله من السماء ، فقد اقتضت الحكمة الإلهية أن يحتوى على التشريعات والتوجيهات التى يحتاج إليها البشر على اختلاف الأماكن ، وعلى توالى العصور .

كما اقتضت العناية الإلهية أن تتسق تكاليفه مع نمو العقل البشرى وتطوره ، وإشرافه على سن الرشد والتمام ، ولهذا صدرت تعاليمه مرنة ، مطواعة ، مستجيبة لسنن التطور ، ومقتضيات الظروف والمناسبات والأحوال . وقد اتسع أمام الباحثين فيها المدى وانفسح المجال ، وهذا على عكس الديانات السابقة التى كانت أوامرها ترد صارمة محدودة واجبة التنفيذ فورا وإلا حل بالمنصرفين عنها الوبال ، سواء بالخسف، أو المسخ ، أو الإغراق ، أو الريح العقيم ، : ﴿ مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ ﴾ ، ﴿ فَلَمَّا عَتَوْاْ عَن مَّا نُهُواْ عَنْهُ قُلْنَا لَهُمْ كُونُواْ قِرَدَةً خَاسِئِينَ ﴾ .

ولقد كان محمد صلوات الله عليه ينهى أصحابه عن الإلحاح فى السؤال لأنه يريد أن يفسح المجال أمام العقول على توالى الأزمان . وكان يوصيهم ألا يضيقوا على أنفسهم فيضيق الله عليهم المجال ، والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تَسْأَلُواْ عَنْ أَشْيَاء إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ ﴾ .

ولهذا رسمت الشريعة الإسلامية الكليات وتركت الجزئيات ، وتناولت الأصول وتركت الفروع لبحث الباحثين ، واجتهاد المجتهدين بحسب ما تقتضيه الملابسات ، والظروف الخاضعة لسنة التطور والارتقاء ، وأصبح الاجتهاد فيها مصدرا من أهم مصادر التشريع ، وهو مبدأ انفرد به الإسلام لم يُسبق إليه ، بل إنه لم يلحق فيه أيضا إلا بعد عصور متطاولة تناهز ألف عام ، أى فى مطالع النهضة فى أوربا .

ولقد كان العالم قبل الإسلام يدور فى نطاق مادى محض ، فإن تعرض لتحكم العقول تعددت أمامه المسالك ، وتشعبت الطرق وتضاربت الآراء ، كما حدث عند فلاسفة الإغريق القدماء ومن تلاهم من الباحثين والعلماء ، فحارت العقول بين فلسفة السفسطائيين ، والمشائين ، والرواقيين ، والإفلاطونية الحديثة ، فالتبس الحق بالباطل، واشتبه الصحيح بالزائف ، وامتزج الرشاد بالضلال ، وأصبح الباحثون شيعًا وأحزابا

﴿ كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ﴾ واتسعت الهوة بين الماديات والمعنويات ، وكاد التفكير ينفصل عن الحياة .

أما المسيحية ، فقد انصرفت عن الحياة المادية إلى الحياة الروحية ، وأغرقت فيها كل الإغراق ، فحجزت العقول عن التفكير ، وفرضت الوصاية على العلماء والباحثين ، واحتكر البابوات لأنفسهم تفسير الإنجيل ووصاياه ، ومن استعمل عقله ، وأطلق لفكره العنان كان جزاؤه من الكنيسة الحرمان .

فلما بزغت شمس الإسلام ، بددت غياهب الظلام ، وأطلقت العقول من أغلالها، وكرمت العلم وأهله ، ورفعت مكانة العلماء الباحثين ، وأنشأت حضارة مادية روحية معتمدة على العقل والمنطق ، جامعة بين المثالية والواقعية ، وبين المادة والروح ، وبين الدنيا والآخرة ، وبهذا حملت لواء المدنيات ألف عام .

ولقد تأثر المسيحيون بهذه النهضة الإسلامية العظمى ، وما تشرق به من الومضات العقلية ، والفتوحات الفكرية عن طريقين ، **أولهما** : طريق التقائهم بالمسلمين فى الحروب الصليبية . **والثانية** : طريق من تتلمذ على المسلمين فى الجزيرة الأندلسية ، فلما بهرتهم الحضارة الإسلامية ، حملوها معهم عند عودتهم إلى بلادهم ، فأيقظوا بها العقول الخامدة وحركوا بها الأقطار الجامدة ، وقام "مارتن لوثر" وأتباعه ينادون بما نادى به الإسلام من حرية الباحثين فى فهم نصوص الدين .

كانت الديانات السابقة لا تخاطب العقول ؛ لأن العقول لم تبلغ بعد درجة النضج والرشاد ، وإنما كانت تعتمد على خوارق العادات من المعجزات المادية الملموسة ، لأن الطفل لا يؤمن إلا بما تدركه حواسه تمام الإدراك ، فالنار تتحول إلى برد وسلام، والعصا تنقلب ثعبانا ، والجبل يرتفع فوق الرءوس ثم يعود إلى مكانه ، والبحر ينفلق إلى شقين ، كل شق منهما كالطود العظيم ، والصخرة تنشق فتخرج منها ناقة ثمود ، وعيسى يبرىء الأكمه والأبرص والأعمى ، ويحيى الموتى بإذن الله .

وهكذا كانت تتوالى المعجزات الحسية المادية لتأييد الرسالات بدلا من أن تتوالى الأدلة العقلية ، والبراهين المنطقية ، والشواهد العلمية ، لأن الله ادخرها إلى أن يبلغ العقل البشرى النضج والتمام ، فتهبط عليه رسالة الإسلام .

وقد جرت على يد محمد صلوات الله عليه وعلى آله بعض المعجزات المادية ليعتبر بها من تخلف عقله عن إدراك المعنويات ، ولكن معجزة آخر الأنبياء عليهم جميعا أفضل الصلاة والسلام كانت معجزة عقلية خالدة ، ليست محدودة بزمان ولا مكان ، وليست مقصورة على من يشاهدون المعجزات المادية وحدهم فى فترة محدودة ، وهم قلة محدودة ، وهم غير حجة على من لم يشاهد أمثال هذه المعجزات .

أما معجزة الإسلام المعنوية الخالدة التى يعرضها الله على جميع العقول فى جميع العصور فهى (القرآن الكريم) ، وهو معجزة قائمة على النظر العقلى ، والتدبر الفكرى ، والاستدلال العلمى ، مهما اختلفت الصور ، وتعددت الغايات .

إن القرآن الكريم قدر العقل كل التقدير وجعله ميزة للإنسان استحق بها خلافة الله فى أرضه ، وبها احتمل الأمانة التى عجزت عن حملها الأرض والجبال والسموات ، وقد أشار القرآن إلى العقل ومشتقاته ومترادفاته ، فى نحو ثلاثمائة وخمسين آية ، فسماه العقل ، والفكر ، والرأى ، والنظر (بمعنى التدبر) ، والفقه ، والرشد ، والذكر ، واللب ، والنهى ، والحجر ، والقلب ، والفؤاد ، والحكمة ، والبرهان ، والبينة ، والهدى .

وكانت أول آية نزلت فى هذا الكتاب الكريم تهتف بالنبى الأمى ، أن يقرأ ، وتذكره بأن أكبر نعمة أنعم الله بها على الإنسان بعد خلقه هى نعمة التعليم . ﴿ اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ . وامتن الله على رسوله بالتعليم فقال : ﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾ ، وروى حذيفة بن اليمان رضى الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال : "فضل العلم خير من فضل العبادة" . وروى أبو هريرة قول الرسول صلوات الله عليه : "من سلك طريقا يلتمس فيه علمًا سهل الله له به طريقًا

إلى الجنة" ، وروى أبو الدرداء من حديث آخر : "فضل العالم على العابد كفضل القمر على سائر الكواكب" وإن العلماء ورثة الأنبياء .

ولهذا ، أقبل المسلمون على العلم ينشدونه فى مظانه وغير مظانه ، وعكفوا على ثمرات عقول القدماء من فلاسفة الإغريق والرومان وغيرهم ، يدرسونها ، ويمحصونها ، ويأخذون عنها ، ويزيدون عليها ما هداهم إليه البحث والنظر والاستدلال ، متابعين فى ذلك أوامر دينهم الحنيف ، الذى لقنهم أن العلم أفضل القربات إلى الله ، وأن الخشية التى لا تعدلها خشية ، والتقوى التى لاتضارعها تقوى، إنما تنبع من قلوب العلماء : ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء ﴾ وأن الله قرن به وملائكته المقربين العلماء : ﴿ شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلآئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ ﴾ ، وأن لله آيات لا يعقلها إلا العالمون . وأن مجالس العلم هى رياض الجنة ، كما قال الرسول صلوات الله عليه : "إذا مررتم برياض الجنة فارتعوا ، قالوا وما رياض الجنة يا رسول الله ؟ قال مجالس العلم" واسمعوا حديث أنس بن مالك عن رسول الله صلوات الله عليه : "طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة" ، وحديث ابن عباس عنه ﷺ : "ومن جاءه أجله وهو يطلب العلم لقى الله ولم يكن بينه وبين النبيين إلا درجة النبوة" .

والعلم ينمو ويزدهر فى ظل التسامح وسعة الصدور .

ولهذا أفسح المسلمون الأول صدورهم لعلماء اليهود والنصارى النسطوريين ، بل فوضوا إليهم كثيرا من الأعمال الجسام ، ورقوهم إلى المناصب الخطيرة ، فأعلى المنصور منزلة (جورجيس بن بختيشوع) حتى بزت منزلته وزراءه ، ورفع المهدى منزلة (تيوفيل بن توما النصرانى المنجم) ، ووضع الرشيد جميع المدارس تحت إشراف (يوحنا بن ماسويه) ، وأكرم المأمون (يوحنا البطريق) ، وجعله أمينا على ترجمة الكتب القديمة ، ورفع منزلة (سهل بن سابور وابنه سابور) ، وأعز المعتصم (بختيشوع بن جبريل) وكان يجلسه بجانبه ويمازحه ويداعبه ، وأحسن المتوكل إلى (حنين بن إسحاق) ومنحه الإقطاعيات الواسعة والجاه العريض ، وحظى كثير من علماء اليهود والمسيحيين بمنزلة رفيعة بين المسلمين ، مثل متى بن يونس ونسطا

البعلبكى ، ويحيى بن عدى وأبى الفرج بن الطيب ، وثابت بن قره ، وموسى بن ميمون وغيرهم كثير .

والإسلام حينما أمر بالعلم رسم له المنهج القويم ووضع له الصراط المستقم ، فإن الإنسان يتلقى العلم عن أحد الطريقين ، أو عن كليهما معًا ، أولهما : طريق الانتفاع بما اهتدى إليه غيره ، نتيجة النظر والبحث والاستدلال . والطريق الآخر : طريق التجربة الذاتية التى يعتمد الإنسان فيها على نفسه متجها إلى النظر والبحث والاستدلال . والذى لا تؤهله مواهبه للبحث والدرس يستطيع أن ينتفع بما اهتدى إليه غيره من الباحثين المنصفين ، ومن ترك الطريقين وأخلد إلى الأرض وقنع من حياته بالغريزة البهيمية فهو أهل للعذاب الشديد : ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ، فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ وهم بهذا يهدرون آدميتهم، ويتجردون من إنسانيتهم ، ويصبحون هم والعجماوات سواء : ﴿ إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لاَ يَعْقِلُونَ ، وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَّأَسْمَعَهُمْ وَلَوْ أَسْمَعَهُمْ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعْرِضُونَ ﴾. على أن من يعجز عن الخوض فى حقائق الكائنات ، وتدبر ملكوت السموات والأرض ، فإنه غير عاجز عن أن يستمع القول ويستعرض أفكار الباحثين فينتقى منهما أحسنها ، وينهج على منواله : ﴿ فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ ﴾ . أما من فقد ميزة البحث . وفقد إلى جانبها ميزة التمييز ، فهو أهل لأن يسقط عنه التكليف .

وثمة طائفة ثالثة ، أوتيت حظا من ملكات البحث ، كما أوتيت نصيبا من التمييز لكنها انقادت إلى العناد الأعمى فأغلقت قلوبها دون الحقائق الثابتة ، وأصمت أسماعها، وأغمضت أجفانها فأولئك هم الذين : ﴿ خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ عظِيمٌ ﴾ . ﴿ وَقَالُوا قُلُوبُنَا فِي أَكِنَّةٍ مِّمَّا تَدْعُونَا إِلَيْهِ وَفِي آذَانِنَا وَقْرٌ وَمِن بَيْنِنَا وَبَيْنِكَ حِجَابٌ ﴾ . وهم فى عنادهم الصبيانى يخشون على قلوبهم أن ينفذ إليها شعاع من الإيمان عن طريق آذانهم على حين غفلة منهم ،

فيحرصون على أن يوصدوا أمامها جميع المنافذ ، ويسدلوا عليها الأستار وهؤلاء يحدثنا الله جل جلاله عنهم فيقول عز من قائل : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ﴾، وبعضهم يركب رأسه ويلغى عقله ، ويلج فى طغيانه وعناده ، فهو كالصخرة الصماء التى تعترض مجرى النهر ، وتعوق الملاحة، فلا مفر من إزالتها بالنسف والتدمير : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ، ثَانِيَ عِطْفِهِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُ فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَنُذِيقُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَذَابَ الْحَرِيقِ ، ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ ﴾ .

والإسلام حين يهيب بكل قادر أن يستعمل عقله ، وينفع وينتفع بمواهبه لم يترك الأمر سدى ، بل رسم له الخطوات المنهجية ، والوسائل التنفيذية العملية المناسبة لتركيب العقل الإنسانى ، وما يتشعب إليه من مواهب وملكات ، وهذه هى الخطوات :

أولاً : التحرر من قيود العرف ، والتخلص من أغلال التقاليد ، فكأنه يزيل الأنقاض قبل أن يضع الأساس ويرفع البناء ، وهو منهج علمى عملى ، فإن الباحث المتمكن ينبغى له أن يبدأ بحثه متجردًا من كل الميول والأهواء ، بعيدًا عن التأثير والإيحاء ، مستجيبًا لما يهديه إليه البحث المبنى على التجربة والموازنة والاستقراء .

ولقد ظل علماء الغرب يؤمنون بنظريات أرسطو أكثر من ألف عام ، ويرونها دستورًا لا سبيل إلى نقضه ، ولا إلى الانحراف عنه بأى حال ، فركدت العقول ، وخمدت الأفكار ، ووقف ركب الحضارة والعمران ، حتى تحررت العقول من سلطان أرسطو ، وبدأت تضع آراءه ونظرياته موضع التجربة والاختيار ، فما أثبته البحث الدقيق قبلته ، وما نفاه البحث رفضته ، ولو زكته آلاف السنين ، وكان (لبيكون وكانت ، وديكارت) وأمثالهم فضل عظيم فى هذا التحرر الذى تأسست عليه الحضارة الحديثة ، وكانوا فى هذا متأثرين بتعاليم الإسلام ، كما قرره كثير من الباحثين الغربيين المنصفين ، فإن الإسلام نادى بالتحرر الفكرى قبلهم بمئات السنين ، فأهاب بالعقول أن تتخلص من أغلال العرف ، وقيود التقاليد . واستنار بهذا التوجيه أعلام

المفكرين الإسلاميين ، فجعلوا الشك أساسا لليقين ، كالحسن بن الهيثم ، والغزالى ، وإخوان الصفا .

وسار على نهجهم بعد هذا بعدة قرون (ديكارت ، وكانت ، وبيكون) ، فأسسوا الحضارة الغربية الحديثة القائمة على التحرر والانطلاق .

ولقد حارب القرآن الكريم المقلدين فى كثير من آياته ، قال تعالى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ ﴾ ، فهو يعيب عليهم أنهم اقتفوا آثار آبائهم الذين لم يستعملوا عقولهم ، ولم يهتدوا بتجارب غيرهم ، وهم بهذا أحط منزلة من هؤلاء الآباء . ويقول فى آية أخرى : ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلاَ يَهْتَدُونَ ﴾ .

ولا نعلم مثلا للعذر الذى يفوق فى قبحه الذنب ، كالمثل الذى ضربه القرآن الكريم لهؤلاء المقلدين لأنهم اقترفوا الذنب لا عن خطأ فى التقدير ، وإنما عن تقليد للسابقين ، ولم يكتفوا بهذا بل افتروا على الله الكذب وهم يعلمون : ﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لاَ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاء أَتَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ ﴾ .

ثانيًا : التأمل والمشاهدة ، أو مرحلة جمع المعلومات الحسية المادية تمهيدًا للبحث والدرس ، ثم الحكم القائم على الدليل والبرهان ، والآيات القرآنية حافلة بالدعوة إلى التأمل فى ملكوت السموات والأرض وما فيهما من الكائنات ، وقد وجه القرآن الكريم الفكر فى هذه المرحلة إلى التأمل فى جميع ما يقع عليه الإدراك الحسى والعقلى من أصغر المدركات إلى أكبر الكائنات ، من الذرة والذبابة والبعوضة إلى الجبال والبحار ومواقع النجوم ، يقول الله تعالى : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لَن يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِن يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَّا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ ﴾ ويقول عز من قائل : ﴿ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ، وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَّوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ ﴾ . ويقول تعالى : ﴿ لَخَلْقُ

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ ، ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُواْ فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللّهُ مِن شَيْءٍ ﴾ ، ﴿ قُلِ انظُرُواْ مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ﴾ ، ﴿ أَفَلَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاء فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ، وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ، تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ﴾ ، ﴿ وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ، وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ ، ﴿ أَفَلَا يَنظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ ، وَإِلَى السَّمَاء كَيْفَ رُفِعَتْ ، وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ، وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ ، فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴾ ، ﴿ وَكَأَيِّن مِّن آيَةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ ﴾ .

ثالثًا : الخطوة التالية بعد جمع المعلومات ، هى البحث والموازنة والاستقراء. وإذا كانت المرحلة السابقة تعتمد على المشاهد الحسية ، فإن هذه المرحلة تضم إليها خطوات التفكير العقلى ، الذى يحلل ويوازن ويدرك وجوه الشبه ومواطن الخلاف ، ويخرج بالنتائج والأحكام ، وتلتقى فيه المعنويات بالماديات . فقد تتشابه المظاهر المادية ، وتختلف جواهرها المعنوية ، وقد تختلف الماديات ، وتتفق المعنويات ، والقرآن الكريم حين يحرص على الموازنات لا يقتصر على الموازنات الحسية وحدها، بل يحرص إلى جوارها على الموازنات العقلية ، ويجمع بينهما أحيانًا لينبه المدارك الحسية كما يتبه الملكات العقلية . فمن أمثلة الموازنة المادية قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ . والموازنة التى سردها الله جل شأنه بين فيها وجوه الخلاف كما بين وجوه الاتفاق ومن أمثلة الموازنة العقلية قوله تعالى : ﴿ لاَّ يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاًّ وَعَدَ اللّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ . وهنا نرى الطرفين متفقين فى

أن كلا منهما موعود بالحسنى ، ولكنهما يختلفان فى مدى التقدير المعنوى عند الخلاق العظيم .

ومن أمثلة الموازنة الحسية والعقلية معا ، قوله تعالى : ﴿ وَمَا يَسْتَوِي الْأَعْمَى وَالْبَصِيرُ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَلَا الْمُسِيءُ قَلِيلًا مَّا تَتَذَكَّرُونَ ﴾ ، ويقول تعالى : ﴿ وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاء وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾ ، ﴿ وَهُوَ الَّذِيَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُّتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُواْ إِلِى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ ، ﴿ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ، وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاء ﴾، ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾ ؟ ولو ذهبنا نسرد الآيات منها لسقنا عشرات وعشرات فحسبنا ما سقناه دليلا على ما تركناه .

رابعًا : المرحلة الرابعة ، مرحلة الحكم المبنى على الدليل والبرهان ، وينبغى أن يقوم الحكم على الاجتهاد فى البحث والدرس ، حتى يفرغ الباحث جهده ، ويستنفد وسائله ، فإن أصاب فله أجران ، وإن أخطأ فله أجر واحد ، هو أجر الباحث عن الحقيقة بعمق وإخلاص ، وإن خانته ملكاته فى الوصول إلى الحقيقة ، فلا سبيل إلى الحكم المبنى على مجرد الظن ، قال تعالى معرضا بالملحدين : ﴿ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا ﴾ ، وقد ضرب الله مثلا لعالم إسرائيل آتاه الله العلم فصرفه إلى إشباع رغباته الحسية ، وتلبية ، أهوائه الذاتية قال تعالى : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِيَ آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ، وَلَوْ شِئْنَا لَرَفَعْنَاهُ بِهَا وَلَكِنَّهُ أَخْلَدَ إِلَى الأَرْضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِن تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ

أَوْ تَتْرُكْهُ يَلْهَث ذَّلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ ، سَاء مَثَلاً الْقَوْمُ الَّذِينَ كَذَّبُواْ بِآيَاتِنَا وَأَنفُسَهُمْ كَانُواْ يَظْلِمُونَ ﴾ .

وإن الله جل جلاله حينما يجادل الكافرين يطالبهم بالدليل المبنى على العقل المفكر ، والإدراك المحسوس معا ، يقول تعالى عز من قائل : ﴿ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ؟ أَمْ لَكُمْ سُلْطَانٌ مُّبِينٌ ، فَأْتُوا بِكِتَابِكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ ، ويقول جل شأنه : ﴿ قُلْ هَاتُواْ بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ .

نظرية المعرفة فى الإسلام :

إننا لا نستطيع أن نتعرض لنظرية المعرفة فى الإسلام ، قبل أن نشير إلى نظريات المعرفة فى أكثر المذاهب الفلسفية ، مع طرح المذاهب المتطرفة التى ابتدعها المنحرفون ، وسنكتفى منها بأربعة مذاهب تتمتع بالسيادة الفكرية بين جمهرة الباحثين وهى :

المذهب التجريبى : Empiricism وطريق المعرفة فيه هى الخبرة الحسية، وإذا أغلقت الحواس أبوابها ، انعدمت المعرفة . فلن تنشأ فى العقل أفكار إلا إذا سبقتها مؤثرات حسية ، والفكرة التى لا يمكن ردها أو رد عناصرها إلى أصولها الأولى من الطباعات حسية ، هى فكرة باطلة .

المذهب العقلى : Rationalism وطريق المعرفة فيه لا ترتكز على الحواس وحدها لأنها تخطئ وتصيب ، ولهذا لا تصلح أساسًا للمعرفة ، وإنما أساس المعرفة هو العقل الذى يدركه صاحبه إدراكا مباشرا ، فهو الذى يشك ويفهم ، ويدرك ويثبت ، وينفى ، ويريد ، ويتخيل ، ويشعر ، كما يقرر "ديكارت" مؤسس المذهب العقلى فى الفلسفة الأوربية الحديثة .

والعقليون لا يرفضون ما تجئ به الحواس ، ولكنهم لا يقطعون بإثباتها .

المذهب النقدى : Criticism وهو يجمع بين المذهب التجريبى ، والمذهب العقلى ، وقد أسس "كانت" Kant هذا المذهب مقررا أن المعرفة لا تتم إلا بالخبرة

الحسية ، والمبادئ العقلية معًا ، ولا شك عنده فى أن جانبا منها يأتى من الخارج وهو جانب الخبرة الحسية التى تتثبت من الأشياء ، ولكنها حينما يتلقاها العقل فى إطاره ينظمها فى حدوده ، ومن ثم يكون كل جزء من معرفتنا معتمدا فى مضمونه على خبرة الحواس ، ومن ثم يكون كل جزء من معرفتنا معتمدا فى مضمونه على خبرة الحواس ، وفى قالبه على فطرة العقل فى طريقة الإدراك ، وهكذا يكون كل جزء من معرفتنا حسيا وعقليا فى آن واحد معا .

المذهب الصوفى : Mysticism ، إذا كانت وسيلة المعرفة عند التجريبيين هى الحواس ، ووسيلتها عند العقليين هى العقل ، ووسيلتها عند النقديين هى الحواس والعقل معا ، فإن وسيلة المعرفة عند الصوفيين تختلف عن المذاهب السابقة ، فهم يرون أن العلم اليقينى إنما يجئ عن طريق الحدس Intuition ويسمونه الذوق الصوفى ، أو الكشف ، أو العيان ، أو الوجدان ، أو كما يقول الشيرازى فى شرحه لحكمة الإشراق للسهروردى :

"أصل القواعد الإشراقية ومأخذها هو الكشف والعيان ، وأصل قواعد المشائين البحث والبرهان " .

ويعرف القيصرى الذوق الصوفى بأنه ما يجده العالم على سبيل الوجدان والكشف ، لا البرهان والكسب ، ولا على طريق الأخذ بالإيمان والتقليد .

فاعتماد الصوفيين ينهض على صفاء القلب ، ومجاهدة النفس ، حتى تصل إلى مرتبة من الصفاء تتصل فيها بالقوة اللانهائية المسيطرة على الأكوان اتصالا يتيح لها من المعارف ما لا تصل إليه الحواس والعقول معًا .

هذه هى أهم مذاهب المعرفة التى اهتدى إليها علماء وفلاسفة الغرب المعاصرون ، وبعض الصوفيين الإسلاميين ، وقد تفرعت عن هذه المذاهب نظريات فكرية عديدة ، وراح كل فريق يغالى فى التشيع لمذهبه ، فأصبح لا يرى الحقيقة إلا من جانب واحد ، والحقيقة فى عظمتها وآثارها وآمادها أوسع نطاقًا من نظرته بكثير،

مما تسبب عنه اضطراب فكرى وعدم استقرار فى الحضارة الغربية المعاصرة مما جعلها تحمل فى طياتها بذور الانتكاس والعودة بالإنسانية القهقرى من جديد .

أما القرآن الكريم فقد وضع أسس المعرفة قبلهم بمئات السنين ، وأحاط بجميع الجوانب ، واستوعب طرق ووسائل المعرفة جميعًا ، وجعل منها كلا متكاملا غير قابل للتمزق والشتات ، وتقوم نظرية المعرفة فى القرآن الكريم على أساس التعادل بين الكم والكيف ، والمادة والروح ، والغاية والسبب ، فلا إفراط ولا تفريط طبقًا لقوله تعالى : ﴿ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُواْ السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ﴾ .

لقد ربط القرآن الكريم بين الحواس المرهفة ، وبين العقل الباحث المنظم ، والوجدان النقى الملهم ، فالقرآن يدعو إلى استعمال الحواس ، وبخاصة حاستى السمع والبصر ، وقد سردنا طائفة من الآيات القرآنية تدعو إلى التدبر والتبصر واستعمال الملكات العقلية ، ولكن الحواس لا تغنى وحدها ما لم تستعن بالبصيرة الملهمة ، والعقل الراجح النفاذ : ﴿ لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾ . أما طريق الحدس الوجدانى الذى يصل إليه الإنسان بمجاهدة النفس وتقوى الله ، فقد أشار إليه القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ وَاتَّقُواْ اللّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللّهُ ﴾ وقوله تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِن تَتَّقُواْ اللّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَاناً ﴾ ، أى يبث فى نفوسكم ملكة التمييز التى تفرقون بها بين الخطأ والصواب ، وتدركون بها حقائق الأمور . وقوله تعالى : ﴿ يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاء ، وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ﴾ ، فانظر كيف جمع الإسلام بين جميع المواهب والملكات سواء منها الحسية ، أو المعنوية . المنطقية أو الروحية ، وكيف أرهفها ، وأعدها لتبلغ غاية الغايات .

الضوابط العقلية :

لقد وضع الإسلام قواعد منهجية دقيقة تحفظ العقل من الزيغ ، وتجنبه الشطط والمروق ، وتتيح له ككائن عضوى النمو والتفتح ، والإبداع ، ومن أهمها :

١-**عدم تجاوز الحد** : توجد مناطق فى الكون تسمى ما وراء المادة فى عرف الفلاسفة ويسميها القرآن الكريم : الغيب . وتكوين العقل محدود وهو بهذه الخصيصة إذا حاول أن يتعرف إلى الغيب بمقاييسه فإن محاولته عبث ولا شك ، لأن الغيب فوق طاقته وقدرته ومقاييسه ــ ولأنه تجنيد للعقل فى غير ميدانه إلى ميدان آخر لا صلة له بطبيعته ، ولا بخصائص تكوينه ، فالروح والملائكة وحملة العرش وصور الكرسى واللوح المحفوظ والحياة البرزخية ، لا سبيل أبدًا إلى عرضها على البحث والموازنة والإستقراء ، فإنها من الأمور الغيبية التى اختص بعلمها الخلاق العليم ، قال جل شأنه ﴿ وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلاَ حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلاَ رَطْبٍ وَلاَ يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ .

﴿إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ . ﴿وَمَا كَانَ اللّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ ﴾ ، ﴿ وَلِلّهِ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ ﴾.

والذى يقف عند حده ، ويسير فى الطريق المرسوم يصبح فى عداد المؤمنين الصادقين الذين يقول الله فيهم : ﴿ أَلَمْ ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ ، الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴾ .

٢-**التقدير والتقرير** :

التثبت قبل الحكم والتدبر قبل العزم ، والتروى قبل الجزم بحيث لا يسبق اللسان الفكر ، ولا يطغى الظن على اليقين : أمر يفرضه القرآن على العقل لأن التعجب بالحصول على النتائج قبل استكمال البحث والموازنة والاستقراء كفيل بانحراف العقل وزيغه ، ولهذا عاب القرآن الكريم على الإنسان أن ينساق مع العجلة، وأن ينقاد لشهوة السبق ، مطالبا إياه بالتثبت والتبين قال تعالى : ﴿ خُلِقَ الْإِنسَانُ مِنْ عَجَلٍ سَأُرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴾، ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ

مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاَتُ ﴾ ، ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَى مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ ﴾ .

وقد أدب الله تعالى رسوله الكريم بهذا الأدب العظيم حيث يقول جل شأنه : ﴿ لَا تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ ﴾ ، وحيث يقول : ﴿ وَلَا تَعْجَلْ بِالْقُرْآنِ مِن قَبْلِ أَن يُقْضَى إِلَيْكَ وَحْيُهُ وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا ﴾ .

٣-التخصص قبل البحث :

والتخصص الآن ، هو أحدث وسائل الدراسة الجامعية ، فإن آية العقل الناضج أن يقف عند حدود ما يعلم ، فلا يصدر الأحكام إلا فى حدود اختصاصه ، ولا يقحم نفسه فى اختصاص الآخرين ، فالطبيب لا يفنى فى مسألة هندسية ، والكيميائى لا يفنى فى مشكلة فلكية ، أما الذين يقحمون أنفسهم فيما يعلمون وفيما لا يعلمون ، معتمدين على جهارة الصوت وقوة الجدل ، وشهوة التغلب على الخصم دون النظر إلى الحقيقة ، فهم ضالون مضلون . يقول الله عز وجل فى شأنهم : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَانٍ مَّرِيدٍ ، كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ ﴾ . ولقد وجهنا الله جل شأنه الوجهة الخليقة بالعقلاء وبالعلماء الباحثين فى قوله تعالى : ﴿ فَاسْأَلُواْ أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ ، وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ ﴾ .

ويخاطب الله عز وجل أولئك الذين يفتون بما لا يعلمون ، أو يتجسسون على همسات غيرهم أو همهمات قلوبهم ﴿ وَلاَ تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾ .

٤-عدم المكابرة والعناد :

من دلالة العقل الرشيد أن يعود إلى الصواب إذا ذكر به ، أو نبه إليه ، فإن النظريات العلمية تتغير بين عشية وضحاها ، والكلمة الأخيرة فى العلوم لا يطمع

الإنسان فى نيلها لأنها صفة العليم الحكيم . وقد ضرب لنا الرسول صلوات الله عليه أروع الأمثال فى هذا المقام : حيث رجع عن رأيه فى غزوة بدر نزولا على رأى أحد الصحابة ، ورجع عن رأيه فى تأبير النخل نزولا على مشورة أصحابه ، قائلا : "أنتم أعلم بأمور دنياكم" . وأصدر عمر بن الخطاب أمرا بمنع المغالاة فى المهور ثم رجع عنه نزولا على رأى امرأة من سواد المسلمين . ولقد أدبنا القرآن الكريم بهذا الأدب الحكيم إذ يقول جل شأنه : ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُواْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ اللّهَ فَاسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَى مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾، ولقد وصف الله الجاحدين المتمسكين برأيهم ، ولو رأوا فساده رأى العين، تنطعًا منهم وتبجحًا فقال جل شأنه : ﴿ وَلَوْ فَتَحْنَا عَلَيْهِم بَابًا مِّنَ السَّمَاء فَظَلُّواْ فِيهِ يَعْرُجُونَ ، لَقَالُواْ إِنَّمَا سُكِّرَتْ أَبْصَارُنَا بَلْ نَحْنُ قَوْمٌ مَّسْحُورُونَ ﴾ .

وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ كِتَابًا فِي قِرْطَاسٍ فَلَمَسُوهُ بِأَيْدِيهِمْ لَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُواْ إِنْ هَذَا إِلاَّ سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴾ .

٥-المراجعة والمعاودة :

إن العلماء المتثبتين هم الذين يراجعون أنفسهم المرة بعد المرة فلا يصدرون الأحكام إلا بعد تمام الاستيفاء والاستيثاق ، فالأطباء مثلا ، يجرون التجارب على الأرانب والفيران ، ثم على القردة والخنازير . وبعد أن يطمئنوا إلى تجاربهم ونسبة النجاح فيها يطبقونها على الإنسان ويترقبون النتائج ، ويسجلون الإحصاءات ، حتى إذا اطمأنوا إلى نتائج أبحاثهم عرضوها فى المؤتمرات الطبية ، ووضعوها تحت البحث والمناقشة ، وأخيرا يصدرون أحكامهم فى ثقة وعن يقين .

والعالم الذى يحترم نفسه ويصونها عن التبذل لا يصدر أحكامه على النتيجة الأولى ، ولا يبنى مقاييسه على غلبة الظن أو على شهوة النجاح ، وقد أخذنا القرآن الكريم بألا نبنى أحكامنا على الظنون ، أو شهوة النجاح ، أو ثورة العواطف ، استجابة لإحقاد متوارثة ، أو نزوات عاطفية طارئة ، يقول عز وجل : ﴿ وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُواْ اعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى ﴾ .

٦-الاستمساك بالحق :

إذا قام الدليل القاطع ، والحجة البالغة اتضحت الحقيقة ، وينبغى إذن أن يؤمن الباحث بما اهتدى إليه إيمانا قاطعا لا يتردد فيه ، فلا يسلم نفسه للوساوس ، ولا ينقاد للهواجس ، ولا يستجيب للريب . يقول الله تعالى : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ﴾ . وقد ضرب الرسول صلوات الله عليه أروع الأمثال حينما تعرض للفتنة والمحنة والدسائس والمساومة ، فجهر بها صريحة مدوية : "والله لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله ، أو أهلك دونه" .

وقد سار على نهجه سن بعده فى الاستمساك بالحق ، أبو بكر ﷺ ، حينما ارتد بعض المسلمين ممتنعين عن أداة الزكاة ، فهب هبته ، وقال قولته ، وقطع على المعوقين والمترددين كل سبيل وهو يهتف بالمسلمين : (والله لو منعونى عقال بعير كانوا يعطونه رسول الله ﷺ ، لقاتلهم عليه وحدى) .

٧-البعد عن الغرور :

من العلماء من يفلت زمام العقل من يديه فيتجاوز حدوده ، ويزعم لنفسه طاقة فوق طبيعته ، فينزلق مع الغرور ، ويفرض ما ليس فى المعقول ولا فى المنقول ، فيرتكس إلى الحيوانية أو الطغيان من جديد . وكم من كوارث حاقت بالبشرية من وراء هذا التية والعجب والغرور ، وما أبلغ هذه الحكمة المأثورة التى تقول : لا يزال المرء عالما ما طلب العلم ، فإذا ظن أنه علم فقد جهل . ولقد قص الله علينا عبرة وموعظة ، قصة ذلك العالم الإسرائيلى الذى أضله الله على علم . حينما أغرق عقله فى لجة من الزهو والغرور ، فاعتبر عقله مرد الحكم ، وصاحب السلطة، وقوام الوجود ، قال تعالى عز من قائل : ﴿ أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ ﴾.

٨-الجهر بالحق :

إنها لمن أجل النعم وأعظمها هذه النعمة التى استحق بها الإنسان التكريم والتعظيم والاستخلاف عن الله سبحانه وتعالى ، وما هذه النعمة إلا العقل الذى يكتب فى أبسط صورة التلخيص الكامل للحقوق والواجبات ، فإذا ما اطمأنت النفس إلى أمر من الأمور ، هان هذا الأمر أو جلّ ، أصبح من الواجب المجاهرة به مهما كانت النتائج أو العواقب، وهل كان "سقراط" جبانا حينما ارتشف كأس السم فى سبيل إظهار الحقيقة والمجاهرة بها بين العالمين ؟ يقول الله عز وجل مخاطبًا رسوله الكريم : ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ، إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ "فاصدع بما تؤمر، وأعرض عن المشركين ، إنا كفيناك المستهزئين﴾ ويوجهه أكرم توجيه هاتفا به : ﴿ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ .

٩-الدعوة إلى الحق :

لا يكتفى القرآن بوجوب الجهر بالحق ، بل يوجب الدعوة إليه . يقول الله تعالى : ﴿ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾ .

ويقول تعالى : ﴿ فَلَوْلاَ نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُواْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ ﴾ . وقد أوصى لقمان ابنه أكرم وصية حيث قال : ﴿ يَا بُنَيَّ أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴾، وقال رسول الله ﷺ : من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فمن لم يستطيع فبقلبه ، وذلك أضعف الإيمان).

١٠-الدفاع عن الحق :

لا يكفى إثبات الحق والجهر به ، لأن قوى الشر متأهبة دائمًا للتحدى ، متحفزة للبغى ، مستعدة للعدوان ، ولقد نبهنا الله تعالى إلى أن الشيطان يتربص بنا

الدوائر ، ويحاول أن يفتننا فى الدين ويصدنا عن اليقين ، وأننا إذا صمدنا فى الدفاع عن الحق وبذلنا فى الدفاع غاية الجهد ، عصمنا الله من سلطان الشيطان ، قال تعالى موجها خطاب التحدى للشيطان : ﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُمْ بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلاَّ غُرُورًا، إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ وَكَفَى بِرَبِّكَ وَكِيلاً ﴾ .

ولقد حاول المشركون جاهدين أن يساوموا النبى صلوات الله عليه فى إيمانه فقالوا : نعبد إلهك يوما وتعبد آلهتنا يوما ، فأنزل الله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ، وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ، وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ ، وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ، لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ . وقال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ يُمَسِّكُونَ بِالْكِتَابِ وَأَقَامُواْ الصَّلاَةَ إِنَّا لاَ نُضِيعُ أَجْرَ الْمُصْلِحِينَ ﴾ . وقد أمر الله تعالى رسوله العظيم بهذا الأدب الكريم فقال : ﴿ فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ .

التطبيقات المنهجية لإيقاظ الملكات العقلية وتنميتها وترويضها :

إن هذه الضوابط العقلية لم يسردها القرآن لمجرد الوعظ والتوجيه ، بل طبقها تطبيقا عمليا منهجيا .

ونكتفى هنا بذكر مثال واحد من مئات الأمثلة التى خاطب بها القرآن الكريم ملكات العقل ، وأيقظ فيه عوامل النمو ، وصحة الحكم والتفكير ، قال تعالى فى سورة المؤمنون :

﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ، وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ، وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ، بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ، قَالُوا أَئِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ؟ لَقَدْ وُعِدْنَا نَحْنُ وَآبَاؤُنَا هَذَا مِن قَبْلُ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ، قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ، سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ؟ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ؟ سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ؟

بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ، مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ ، عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾.

بدأ الله تعالى هذه الآيات بالإشارة إلى أهم وسائل المعرفة ، وهى السمع والبصر والفؤاد ، وأحب أن ألفت الانتباه ، إلى أن القرآن الكريم يستعمل كلمة الأفئدة والقلوب قاصدا بها المدارك العقلية ، وهى وسيلة المعرفة عند العقليين ، كما يقصد بها السبحات الروحية الوجدانية ، وهى وسيلة المعرفة عن الصوفيين ، فاستهل سبحانه هذه الآيات بالإشارة إلى وسائل الهداية الحسية والعقلية والروحية معا، لإيقاظها جميعا وحفزها على الإدراك والتمييز ، ثم ذكر أنها هبة من الله وحده ، يستحق عليها الشكر والتمجيد : ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾.

فإذا تيقظت هذه المدارك جميعها ، لفتها إلى أن الذى خلق الناس على هذا الكوكب السابح فى مجراه ، قادر على أن يبعثهم فى عالم آخر غير هذا العالم المتبدل المتغير ، فى يوم تتبدل فيه الأرض غير الأرض والسموات : ﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ .

ولما كان موضوع البحث هو الإيمان بالله الواحد القهار ، والاعتراف بيوم الجزاء ، وهما مناط الجدل ومجال الإيمان والإنكار ، ساق برهانا عليهما بأن الذى يملك منح الحياة وسلبها ، يملك أيضا بعثها من جديد ، وأن الذى يقدر على تغيير أوضاع الليل والنهار ، يقدر أن يبدل جميع الأوضاع ، وهذا منطق عقلى لا سبيل إلى جحده بحال : ﴿وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾.

هذا كله يعتبره القرآن أساسًا لمناقشة قصة الإيمان بالله واليوم الآخر ، والمناقشة العلمية تفرض عرض آراء الخصم فى دقة وأمانة ، ثم تعقب عليها بما تراه.

ولقد سرد الله علينا رأى الجاحدين المنكرين ، ولم يكتف بسردها ؛ بل ذكر الدليل الذى بنوا عليه آراءهم والحكم الذى أصدروه بناء على هذا الدليل .

أما رأيهم ، فهو إنكار البعث . وأما الدليل فقد أقاموه على مجرد التقليد والنقل عن الآباء دون إدراك وتمييز ، وأن البعث ليس إلا مجرد وعد باطل تلقاه آباؤهم من قبل ، وليس هناك سبيل لتحقيقه ، أما الحكم الذى أصدروه ، فهو أن البعث ليس حقيقة متوقعة ، وإنما هو أساطير خيالية انحدرت إلينا مع القرون : ﴿بَلْ قَالُوا مِثْلَ مَا قَالَ الْأَوَّلُونَ ..... أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ ﴾.

وبعد أن سرد القرآن الكريم رأيهم ودليلهم وحكمهم ، كرّ عليهم بالأدلة القاطعة والبراهين المنطقية ، منتزعًا الحجة من أفواههم :

الدليل الأول :

أن هناك قوة مهيمنة مسيطرة على الأرض ومن عليها ، وكل كائن حى يلمس آثار هذه القدرة ويدرك تصرفها الحكيم ، وهذه القوة يعرفون هم أنها قوة الله الحكيم . هذه القوة الرشيدة حاشاها أن تجعل الغاية من خلق الإنسان أن يولد فيشب فيهرم فيموت : ﴿قُل لِّمَنِ الْأَرْضُ وَمَن فِيهَا ... أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ .

الدليل الثانى :

هذه القوى المهيمنة لم تكتف بخلق الأرض بل خلقت لها مقابلا ماديا ومعنويًا تراه أبصارنا ، وتهتدى إليه مداركنا ، هذا المقابل هو السموات والعرش العظيم ، فإذا سألتهم عن هذه القوة المهيمنة المسيطرة على مصيرهما ، أجابوا صاغرين بأنها قوة الله العظيم فما بالهم لها جاحدون : ﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ ... تَتَّقُونَ﴾ .

الدليل الثالث :

هذه القوة الخالقة الحكيمة لم تكتف بخلق السموات والأرض والمهيمنة عليهما، بل هى خالقة ومهمينة على كل ما فيهما وما بينهما ، وهى التى تملك ولا يشاركها أحد فى التأثير والملكوت ، وقد لفت الله تعالى نظرهم إلى هذه القوة ، وذكر

لهم مثالا واقعيا من حياتهم الاجتماعية وهو : أن الذى يملك أن يجير ولا يملك غيره أن يجير عليه هو وحده الجدير بالطاعة والانقياد : ﴿ قُلْ مَن بِيَدِهِ مَلَكُوتُ ... فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ﴾ ؟ بعد هذه الأدلة الثلاثة التى استخدمت الحواس والملكات العقلية ، أصدر الله تعالى حكمه الحاسم : ﴿ بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾ .

الدليل الرابع :

ثم دعم الحكم بدليل رابع عقلى قائم على العقل والمنطق والبرهان ، يشهد لله تعالى بالقدرة والوحدانية التى أصبحت ثابتة بالدليل الحسى والعقلى ، فالواجب لله تعالى أن يتجه إليه الجميع بالقداسة والعبادة والتنزيه : ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِن وَلَدٍ .... فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴾ ، فأنتك ترون أيها السادة ، أن القرآن الكريم عالج قضية الإيمان بالله واليوم الآخر علاجا منطقيا : بدأ بمقدمة ، ثم عرض الموضوع ، وساق ثلاثة أدلة منطقية اعتمد فيها على اعتراف الجاحدين ، ثم أصدر الحكم قاطعا حاسما ، ثم عززه بدليل عقلى رابع ، وانتهى من هذا كله إلى تقديس الخلاق العظيم .

والمتتبع للأساليب الجدلية فى القرآن الكريم ، يرى مبلغ إيقاظها للعقول وإثارتها للوجدان وحفزها لبواعث الإرادة والتنفيذ .

من هذا كله يتضح مدى اعتزاز الإسلام بالتفكير ، وجعله أساسا قويا من أسس الإسلام ، ومصدرًا هامًا من مصادر التشريع ، ولقد رأى الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده رأى أهل السنة فى : (أن الذى يستقصى جهده فى الوصول إلى الحق ثم لم يصل إليه ، ومات طالبًا غير واقف عند الظن ، فهو ناج) .

وقد ترتب على هذا تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض ، بمعنى : "أنه إذا تعارض العقل والنقل أخذ بما دل عليه العقل ، وبقى فى النقل طريقان : طريق التسليم بصحة المنقول مع الاعتراف بالعجز عن فهمه ، وتفويض الأمر إلى الله فى علمه . والطريق الثانية : تأويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة ، وهذا مشروط بأن يكون الدليل العقلى قطعيا لا خلاف فيه ، وإن كان الواقع العملى يؤيد أنه لا تعارض مطلقا بين العقل والدين ، وفى هذا يقول ابن تيمية : (إن الدليلين القطعيين

لا يتعارضان ، وإن صحيح المنقول فى الإسلام موافق دائما لصريح المعقول ، ففرض التعارض بينهما باطل) .

ولهذا كان الحكم المبنى على الاستقراء ، والموازنة ، والبحث ، والاستنباط ، مصدرا من مصادر التشريع الإسلامى كالكتاب والسنة والإجماع وهو القياس ، بل إن الإجماع يقوم على أساس متين من القياس .

وبعد ، وحينما استجاب الرواد الأوائل من المسلمين لتعاليم دينهم الحنيف ، أنشأوا حضارة بهروا بها العقول ، وسادوا بها الشعوب ، وتقدموا بها الصفوف ، فلما أغفلوا تعاليم دينهم ، وأسلموا عقولهم إلى الجمود ، ومداركهم إلى الخمود ، وآثروا التقليد على التجديد ، والاتباع على الابتداع ، والاستسلام على الاقتحام ، ضاعت منهم مقاليد السيادة ، وسقطت من أيديهم أزمة القيادة ، وأصبحوا فى آخر الصف بعد أن كانوا فى الطليعة روادا سباقين .

إن العالم الإسلامى ليس مجموعة هملا من الناس ، تحيا فى عزلة عن العالم أو تعيش وقد وضعت عصابة على أعينها ، فلا تعلم ما يدور حولها ، أو يقع تحت أبصارها . إن هذا العالم الإسلامى يشارك التطور العالمى ، وهو أحد المحاور العظيمة فى الآلة العالمية ، وإن دوره العظيم ليفرض عليه أن يضع نصب أعينه واجب التوفيق بين حياته المادية والروحية ، وبين مصاير الإنسانية . وإن كان يريد هذا العالم أن يبلغ بدوره القمة ، وأن يكون له من الدوى والرنين ما يتكافأ مع شخصيته ، فعليه أن يعرف العالم فى قيمه وطاقاته التى تسيره ، وعليه أن يعرف حقيقة نفسه فى قيمه وطاقاته ، كما ينبغى عليه ثالثا أن يعرف الآخرين بنفسه ، ثم يشرع بعد ذلك فى تقويم قيمه الذاتية إلى ما يسيطر على العالم الآن من قيم وطاقات.

* * *